هل تتطور «حرب الظل» بين إسرائيل وإيران إلى حرب إقليمية؟



اللواء/ جمال طه

خبير استراتيجي

تطورات وأبعاد «حرب الظل»

وصف قادة الثورة الإيرانية إسرائيل بـ «الشيطان الصغير»، لأنها حليفة الولايات المتحدة «الشيطان الأكبر»، وبمجرد توليهم السلطة في فبراير ١٩٧٩، قطعوا العلاقات معها وسلموا مبنى السفارة لمنظمة التحرير الفلسطينية، هكذا بدأت «حرب الظل» بينهما. وقد اعترف "نفتالي بينت"، رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق، في يونيو ٢٠٢٢، "نخوض «حرب الظل» ضد إيران منذ قرابة أربعة عقود، لكننا بتنا نطبق عقيدة «الأخطبوط»، باستهدافها مباشرة، ولن نلعب مع «المخالب»" قاصدًا وكلاءها بالمنطقة «حزب الله، حماس، الجهاد الإسلامي، أنصار الله الحوثيين، الحشد الشعبي، وفيلق القدس».

بدأت الحرب باستهداف إسرائيلي متكرر لمواقع صواريخ «حزب الله» في لبنان، الذي كان يرد بقصف مستوطنات شمال إسرائيل، والاشتباك البري مع قواتها عبر الحدود، ما حولها إلى «حرب ساخنة» عام ٢٠٠٦. اتسع الاستهداف الإسرائيلي ليشمل سوريا منذ نشوب الحرب بها عام ٢٠١١، وتركز على مواقع «حزب الله» و«فيلق القدس»، وخطوط إمدادهما، خاصة المطارات. أما العمليات بالداخل الإيراني فقد تنوعت بين القصف المباشر والأعمال السيبرانية والمخابراتية، واستهدفت علماء وقواعد بيانات الأنشطة النووية، وكبار مهندسي التصنيع الحربي، وقيادات الحرس الثوري، اعتمادًا على اختراقات عميقة بشبكات احترافية من مندوبي العمليات، تدعمهم تسهيلات لوجستية عبر الحدود الإيرانية مع أذربيجان وشمال العراق. وقد نقلت صحيفة «وول ستريت جورنال» الأمريكية عن مسؤولين إسرائيليين في أبريل ٢٠٢٢، قولهم إن إسرائيل وجّهت منذ عام ٢٠١٧ أكثر من ٤٠٠ هجوم ضد إيران، مما أدى إلى تصفية ٣٠٠ قائد، وتدمير منشآت نووية وأخرى للتصنيع الحربي.

هدأت «حرب الظل» بعد توقيع الاتفاق النووي «خطة العمل الشاملة المشتركة JCPOA» عام ٢٠١٣، واستمرت كذلك حتى نجحت إسرائيل في إقناع "ترامب" بالانسحاب من الاتفاق عام ٢٠١٨، دون وضع آلية بديلة للرقابة على النشاط الإيراني. وقد استأنفت إسرائيل «حرب الظل» ضد المنشآت النووية عقب محاولة إدارة "بايدن" إحياء الاتفاق، لكن واشنطن لم تطلب وقفها، وعدتها وسيلة ضغط، قد تدفع الإيرانيين لجدية التفاوض، خاصة وأنهم لم يتحمسوا للرد العسكري حرصًا على تخفيف العقوبات.

ومع وصول المفاوضات إلى طريق مسدود نتيجة رفض إيران فتح ملفي تدخلاتها في دول المنطقة، وتطوير الصواريخ البالستية، واشتراطها رفع الحرس الثوري من قائمة المنظمات الإرهابية، ازداد العداء الأمريكي-الأوروبي ضد تعنتها، وأضحوا متفهمين لمبررات «حرب الظل»، وشاركوا في تغذية الاحتجاجات المناهضة للنظام في سبتمبر ٢٠٢٢، لكنهم كانوا قد ضيعوا قرابة عام ونصف في مفاوضات صفرية، تعاظمت خلالها قدرات إيران النووية، وقطعت أشواطًا نحو امتلاك القدرات التقنية والمواد الانشطارية التي تؤهلها لصنع سلاح نووي.

وجاء احتدام «حرب الظل» نتيجة تصاعد الصراع الخفي على النفوذ الإقليمي بين إسرائيل وإيران، فتمدد الأخيرة صار يتعارض وطموحات إسرائيل في احتواء الدول المعتدلة داخل التكتل الإبراهيمي، ويهدد بتأسيس محاور استراتيجية تجمع طهران ببكين وموسكو، فقد وقّعت اتفاق تعاون استراتيجي طويل الأمد مع الصين، تضمّن مجالات التسليح والطاقة والخبرات النووية، وتتفاوض لتوقيع اتفاق مماثل مع روسيا، وتسعى إلى الانضمام إلى منظمة شنغهاي، التي تضم روسيا والصين و٤ من دول آسيا الوسطى، مما عزز ديناميكية تحركها بمنطقة آسيا الوسطى، وهذا التوجه أزعج الغرب الذي كان يعول على أن يخصم الدورين الإيراني والتركي في تلك المنطقة من النفوذ الروسي.

تطور خطير في القدرات النووية الإيرانية

كشفت الوكالة الدولية للطاقة الذرية، في يناير ٢٠٢٣، عن رصد تغيير شبكة الأنابيب التي تربط بين سلسلتين من أجهزة الطرد المركزي بمنشأة «فوردو» النووية، وهي خطوة تسمح بتخصيب اليورانيوم عند مستويات أعلى وبوتيرة أسرع، كما

> **هدأت «حرب الظل» بعد توقيع الاتفاق النووي «خطة العمل الشاملة المشتركة JCPOA» عام ٢٠١٣، واستمرت كذلك حتى نجحت إسرائيل في إقناع "ترامب" بالانسحاب من الاتفاق عام ٢٠١٨، دون وضع آلية بديلة للرقابة على النشاط الإيراني.**

رصدت جزيئات من اليورانيوم المخصب بنسبة ٨٣,٧%، وذلك في تجاوز لنسبة الـ ٦٠% المعلنة سابقًا، وخطورة ذلك أن أول قنبلة نووية أمريكية دمرت مدينة هيروشيما اليابانية عام ١٩٤٥ كانت مصنوعة من يورانيوم مخصب بنسبة ٨٤%، وقدّرت الوكالة أن مخزون إيران من اليورانيوم المخصب قد تجاوز السقف المسموح به وفق الاتفاق النووي لعام ٢٠١٥ بـ ١٨ مرة.

وفي هذا الإطار، أكد وكيل وزارة الدفاع الأمريكية للشؤون السياسية "كولين كال"، أمام لجنة القوات المسلحة بمجلس النواب، «أن تطور إمكانات إيران النووية يسمح لها بتخصيب ما يكفي من اليورانيوم لصنع قنبلة نووية واحدة خلال ١٢ يومًا فقط». ومما زاد من حنق واشنطن، تكثيف إيران لاستفزازاتها بالمواقع الأمريكية في سوريا، فقد أصابت ثلاث طائرات مسيّرة قاعدة "التنف" العسكرية في يناير، تم إسقاط طائرتين منها، كما تم إسقاط مسيّرة ثالثة في فبراير، أثناء تنفيذها عملية استطلاع على قاعدة الدوريات الأمريكية شمال شرق سوريا.

ردود الفعل الإسرائيلية-الأمريكية

أكد موقع «أكسيوس» الأمريكي عزم إسرائيل توجيه ضربة عسكرية للمنشآت النووية الإيرانية، أعقبه سعي واشنطن للتشاور مع تل أبيب لعمل تقدير موقف لمختلف أبعاد العملية،

> تعد مناورة «سنديان البازلت» بين إسرائيل وقوات القيادة المركزية الأمريكية التي انطلقت في أواخر فبراير ٢٠٢٣، ثالث مناورة مشتركة خلال عام واحد للتدريب على محاكاة عمليات قصف أهداف بعيدة المدى، لكنها كانت الأكبر، وذلك كمقدمة لعملية عسكرية مشتركة ضد إيران.

وقام "جيك سوليفان" مستشار الأمن القومي الأمريكي، بزيارة إسرائيل، في ١٨ يناير ٢٠٢٣، تبعه مدير وكالة المخابرات المركزية "وليام بيرنز" يوم ٢٧ يناير، و"أنتوني بلينكن" وزير الخارجية يوم ٢٩ يناير، وهؤلاء يمثلون ثالوث صنع القرار بنواحيه الأمنية والمخابراتية والسياسية بالإدارة الأمريكية.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى مناورة «سنديان البازلت» بين إسرائيل وقوات القيادة المركزية الأمريكية التي انطلقت في أواخر فبراير ٢٠٢٣، وهي ثالث مناورة مشتركة خلال عام واحد للتدريب على محاكاة عمليات قصف أهداف بعيدة المدى، لكنها كانت الأكبر، فقد شارك فيها أكثر من ٧٥٠٠ جندي، و١٤٢ طائرة، بينها قاذفات قادرة على حمل قنابل نووية، واستهدفت اختبار قدرة القوات في الوصول لأهدافها اعتمادًا على طائرات التزود بالوقود جوًّا، ثم تدمير أنظمة الدفاع الجوي المعادية، وذلك كمقدمة لعملية عسكرية مشتركة ضد إيران. وقد كشف "بنيامين نتنياهو" أنه "أقر خطة للتعامل مع الملف النووي الإيراني، وأطلع أمريكا وفرنسا وألمانيا على استعداداته المنفردة لشن هجوم على إيران".

بمجرد انتهاء المناورات بدأت واشنطن في بحث التفاصيل العسكرية للعملية وانعكاساتها الإقليمية، وذلك خلال زيارة رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال "مارك ميلي" لإسرائيل في ٣ مارس ٢٠٢٣، اتجه بعدها لتفقد قواته (قرابة ٩٠٠ جندي) شمال شرق سوريا، لبحث تعزيز أمنها، تحسبًا لاستهدافها. وذلك قبل أن يبدأ وزير الدفاع "لويد أوستن" جولته في المنطقة بزيارة العاصمة الأردنية عمان، في ٥ مارس ٢٠٢٣، ومنها إلى بغداد ثم القاهرة، واختتمها بزيارة إسرائيل، التي طرحت مطالبها العسكرية العاجلة، خاصة مزيدًا من طائرات (F-35)، وسرعة تسليم طائرات (F-15EX)، و (Boeing KC-46) لتزويد الطائرات بالوقود جوًّا، ومزيدًا من الذخائر دقيقة التوجيه. وقد أكد "نتنياهو" خلال لقائه بـ"أوستن" أن "لدى إسرائيل والولايات المتحدة أجندة مشتركة لمنع إيران من امتلاك أسلحة نووية"، فرد عليه مساعد المرشد الأعلى "علي خامنئي"، بأن "إيران سترد على أي هجوم على منشآتها النووية "بحرق" تل أبيب والأصول الأمريكية في الخليج".

المنظور الغربي للحرب ضد إيران

استفز الدور الإيراني في الحرب الأوكرانية التكتل الغربي، فقد أمدّت روسيا بالطائرات المسيّرة والصواريخ لاستخدامها في قصف البنية التحتية الأوكرانية، مما سمح لإسرائيل بتبرير استهدافها للمنشآت الإيرانية، باعتباره دعمًا للمجهود الحربي الغربي ضد روسيا، وذلك رغم عدم استجابتها لإلحاح واشنطن اتقاءً لغضب موسكو، وحفاظًا على التفاهمات الخاصة بالعمل في المجال الجوي السوري، وبالفعل لم يصدر عن الدول الغربية أي رد فعل معارض للعمليات الإسرائيلية، حتى بات توتر الساحة الإيرانية وكأنه امتداد جيوسياسي للحرب الأوكرانية.

ورغم اتفاق دول التحالف الغربي على الحرب ضد إيران، فإن دوافعها مختلفة؛ فإسرائيل تستهدف

تدمير مشروع إيران النووي، وإنهاء نفوذها المنافس بالمنطقة، أما أمريكا -بتأييد بريطاني- فقد تعددت أهدافها: **الأول**: فرصة لتصحيح ما ارتكبته من أخطاء استراتيجية تتعلق بتخفيض وجودها العسكري في الشرق الأوسط لحساب انتشارها بالشرق الأقصى لحصار الصين، الأمر الذي فتح الباب للوجود العسكري الروسي في سوريا، وكشف أن الصراع مع موسكو وبكين على منطقة أوراسيا الاستراتيجية لا يمكن الفوز فيه دون وجود قوى فعالة بالشرق الأوسط. **الثاني**: عقاب طهران جرّاء دعمها لروسيا في الحرب الأوكرانية. **الثالث**: الحيلولة دون دخول دول المنطقة مرحلة التسابق النووي. **الرابع**: قطع مسار طريق الحرير الذي يمر بإيران، مما يحجم طموحات الصين الاقتصادية. **الخامس**: عقاب السعودية ودول الخليج على التزامها حيادًا -أقرب إلى موسكو- في الحرب الأوكرانية، وذلك باستنفار رد الفعل الإيراني ضد بنيتها العسكرية والاقتصادية، لنشر الفوضى وزعزعة الاستقرار، مما قد يعيدها إلى كنف الحماية الغربية، والأهم: ضمان هرولتها طالبة الحماية العسكرية من إسرائيل.

مدى جدية الهجوم على إيران

الحقيقة أنه يصعب تأكيد احتمالات تنفيذ الهجوم من عدمه، فالإدارة الأمريكية تقيدها الخشية من التورط في خيار عسكري جديد يُضاف للمستنقع الأوكراني، وهذه الرؤية يتبناها جناح قوي داخل البنتاجون، يميل إلى قبول إيران نووية -على غرار الهند وباكستان- بدلًا من شن هجوم تداعياته خطيرة، وأهمها استهداف المراكز الحيوية في إسرائيل، ومواقع القوات الأمريكية بالمنطقة، فضلًا عن عدم الثقة في إمكانية تدمير البرنامج النووي الإيراني بكامل منشآته، نتيجة توزُّع المراكز وتحصينها وطرق إخفائها المتقنة، والمخاطر

> رغم اتفاق دول التحالف الغربي على الحرب ضد إيران، فإن دوافعها مختلفة؛ حيث ترى واشنطن أنها فرصة لتصحيح ما ارتكبته من أخطاء استراتيجية تتعلق بتخفيض وجودها العسكري في الشرق الأوسط لحساب انتشارها بالشرق الأقصى لحصار الصين.

التي قد تتعرض لها الطائرات المهاجمة، من جانب شبكة «S-300» للدفاع الصاروخي، وما تردد عن موافقة روسيا على تزويدها بصواريخ S-400 ومقاتلات سوخوي SU-35، مما قد يسمح بإجهاض ولو جزء من الهجوم، والاحتفاظ برد فعل انتقامي صاروخي.

أما من ناحية إسرائيل فإن الهجوم تعوقه عقبات شديدة، أبرزها الشقاق الداخلي وامتداد اعتراضات الرأي العام الإسرائيلي على إجراءات "نتنياهو" لإضعاف القضاء لتشمل سلاح الطيران؛ حيث توقف ٣٧ طيارًا من أصل ٤٠ -ممن يشكلون السرب ٦٩ المسمى "المطرقة" والمتخصص في مهاجمة الأهداف البعيدة- عن المشاركة في التدريبات، مما جعل قائد سلاح الجو السابق الجنرال "إيتان بن إلياهو" يحذر من أن "انتشار هذه الظاهرة قد يعصف بسلاح الجو الإسرائيلي".

المصالحة السعودية-الإيرانية برعاية الصين

الحرب الأوكرانية في حقيقتها صراع يستهدف تغيير النظام الدولي الذي يحكم العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، روسيا تديره عسكريًّا، والصين تديره سياسيًّا واقتصاديًّا، وإيران تشارك بفاعلية، وقد تنبهت الصين إلى أن اضطرار طهران لاستهداف السعودية ردًّا على الهجوم

الإسرائيلي يهدد استقرار الخليج ويعرقل وصول النفط والغاز إليها، كما أنه قد يبعد المملكة عن الصين وروسيا، وربما يليِّن موقفها الخاص برفض الانضمام للاتفاق الإبراهيمي، وبالتالي تجد إيران نفسها في مواجهة محور إسرائيلي خليجي موحد، هذه المخاطر فرضت على الصين المبادرة لمنع تشكله.

وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن تقدُّم السعودية بطلب للانضمام لعضوية تجمع «بريكس» -الذي يضم روسيا والصين والبرازيل والهند وجنوب إفريقيا- ضمن مسعاها إلى تحرير قرارها السياسي والاقتصادي من الارتباط بواشنطن، أدى إلى تعليق البت في طلب عضوية إيران، لأن أحد شروط العضوية هو عدم وجود نزاعات ناشبة بين عضوين بالتجمع، هنا أصبحت المصالحة خيارًا مفروضًا على الدولتين. وقد بادرت الصين -أكبر دول المجموعة- بالوساطة؛ لأنها وجدت في انضمام السعودية لـ«بريكس» لطمة قوية لواشنطن، ودعمًا للمنظمة في مواجهة العالم أحادي القطبية ومؤسساته الغربية، كما أن انضمام إيران يؤمِّن طريق الحرير الصيني في عبوره نحو أوروبا، فضلًا عما يؤدي إليه نجاح الصين في الوساطة من دعم نفوذها السياسي بالشرق الأوسط.

هذا، وقد أنهت رعاية الصين للمصالحة المماطلات التي تعرقلها منذ عامين، الأمر الذي سبَّب إرباكًا للمساعي الإسرائيلية لحصار إيران، وأسقط الرهان الأمريكي على مبررات تخوف العرب من التهديدات الإيرانية، وبدّد الأمل في أن استهداف طهران يمكن أن يؤدي إلى ميل دول الخليج نحو مزيد من الارتباط الأمني مع الولايات المتحدة وإسرائيل، خاصة وأن الإمارات سبقت المصالحة برفع علاقاتها مع طهران لمستوى السفير، أسوة بالكويت، في الوقت الذي قام فيه الأردن بتطبيع علاقاته مع سوريا حليف إيران الإقليمي، والتوافق العربي لاستعادة سوريا عضويتها بالجامعة العربية. هكذا انقلبت خريطة المحاور والتحالفات.

أحدثت المصالحة انقلابًا استراتيجيًّا في المحاور والتحالفات التي راهنت واشنطن على رسمها، فالسعودية منذ نشأتها كانت مرتكزًا للسياسة الغربية، وكانت إيران بمثابة الفزاعة التي يتم تحريك عداءاتها في الاتجاه الذي يحقق المصالح الغربية أيضًا؛ فهي التي استنزفت قوى العراق بحرب السنوات الثماني، قبل أن يغزوه الجيش الأمريكي، والآن أُغلِقت قنوات تلاعب واشنطن بدول المنطقة، وفُتِحَ المجال لوجود سياسي صيني مؤثر يدعم الوجود العسكري الروسي، بما يعد خصمًا من المصالح الغربية، فضلًا عن أنه يجهض الضغوط التي استهدفت فرض سيناريوهات التطبيع على المملكة. والأهم أنه يفوت الفرصة على واشنطن -ولو مؤقتًا- في توسيع ساحة الحرب الأوكرانية لضرب الحليف الرئيس لموسكو بالمنطقة، بكل ما له من تداعيات تصعب السيطرة على نتائجها.

تغيرات الإقليم

يشهد الإقليم ترتيبات مهمة تدعم التحولات الاستراتيجية فيه، فقد اتفقت تركيا مبدئيًّا مع العراق على إنشاء ممر يربط أراضيها بدول الخليج، لتنشيط حركة التجارة بينهما، وكذا بين الخليج وأوروبا، وذلك يمثل إضافة إلى طريق الحرير الصيني، هذا بخلاف ما قد تأتي به الانتخابات التركية من نتائج؛ لأن احتمال فوز المعارضة بقيادة "كمال كليتشدار أوغلو" يعني احتمالية سرعة تطبيع تركيا للعلاقات مع النظام السوري، وهو ما يحاول "أردوغان" السبق إليه دعمًا لموقفه الانتخابي.

ورغم حاجة روسيا الشديدة لقواتها في سوريا للعمل بأوكرانيا، فإنها لم تفكر في التخفيف منها؛ لأنها تعد وجودها أداة رئيسة لتأمين مصالحها في حوض المتوسط، الظهير الجنوبي لساحة الحرب الأوكرانية. وقد نجحت موسكو في احتواء القوى الإقليمية التي تصاعدت أدوارها بعد تراجع الوجود الأمريكي، خاصة الدورين التركي والإيراني في سوريا والعراق، وذلك داخل "صيغة آستانا" التي تولّت مراحل تسوية الأزمة السورية منذ استلام روسيا زمام المبادرة فيها، كما وفرت لهما حوافز الارتباط، سواء من خلال المزايا التي حققتها تركيا بوساطتها في الأزمة الأوكرانية «مركز تجارة الغاز الروسي واتفاق الحبوب...»، أو بوعود لإيران بالحصول على حصة من عقود إعادة الإعمار في سوريا.

وختامًا، يمر الإقليم بمرحلة تغيير جذري في المحاور والتوازنات، حيث تتراجع أدوار أمريكا والغرب لصالح روسيا والصين، وتحركت القوى الإقليمية بديناميكية تحقيقًا لمصالحها الوطنية. ويمثل تحويل «حرب الظل» إلى حرب ساخنة أحد كروت الغرب الدفاعية المتوقعة؛ لإرباك مسارات التطور المضادة لمصالحه، لكن ذلك لن يجهض التحولات، ولن يعيد التوازنات كما كانت، بل سيعمقها ويعجل بها، حتى لو أدت تداعياتها إلى بعض الدمار والفوضى.

"رغم حاجة روسيا الشديدة لقواتها في سوريا للعمل بأوكرانيا، فإنها لم تفكر في التخفيف منها؛ لأنها تعد وجودها أداة رئيسة لتأمين مصالحها في حوض المتوسط، الظهير الجنوبي لساحة الحرب الأوكرانية."